النهضة الشرقية الحديثة

اظهر مظاهرها وابقى آثارها

١ — رأي الاستاذ عباس محمود العقاد

ما هي النهضة ؟ هي الخروج من حالة الجمود الى حالة الحركة ، او هي الانتقال من المحاكاة والتقييد الى عهد الاستقلال والحرية. فاذا اردنا ان نقوّم نهضة يقيمتها الصحيحة فلنبحث عن دلائل الحرية فيها فثم النهضة وثم يكون اظهر مظاهرها

يمكنني ان اقسم الحرية الى نوعين : نوع اسميه الحرية المادية واعني به الحرية الاضطرارية اي الحرية التي لا تكون احراراً في طلبها بل نعمد اليها مكرهين مدفوعين بحكم الاحوال القاهرة وبواعث المعيشة ، وتلك حرية ناقصة مبتورة لانها حرية من لا حرية لهُ في الاختيار . فاذا تبدلت احوال المعيشة فضاقت بنا عاداتنا وعقائدنا سعى احوالنا الجديدة فبرمنا بها ونقضناها عنا فتلك حركة مباركة وحرية طيبة ولكنها على هذا حرية تملؤها حريات ومنزلة لا تنيط الاثم على الوقوف لديها ، وليس يصعب عليك ان ترى شيئاً طما في الحيوان يضيق به الحبس فينطلق منهُ او يثقل عليهِ القيد فيعالج كسرهُ او في الجماد يتقدم لانهُ لا يستطيع ان يقف مكانهُ ويتحرك لانهُ محمول على الحركة

ونوع آخر هو الحرية الروحية او هو الحرية التي لا تدفعك اليها الضرورات المألوفة والمطالب السوقية وانما يدفعك اليها اتساع افق النفس وسمو معاني الحياة والطموح الى غايات من الرفعة والجمال يشتاقها الانسان الكامل وهو موفور الجسد مكفي المؤنة . فهذه الحرية هي الحرية النفسية العالية وهي مقياس النهضات الشريفة وفضيلة الانسان على سائر المخلوقات ، وهي الحرية التي تترجم عنها الآداب والفنون والفلسفة الروحية وما اليها من التعبيرات « الجميلة » عن اشواق الحياة

***

ولقد سألتموني : «ما هي أظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة وأبقى آثارها ؟ » فرأيي اذن ان اظهر مظاهر نهضتنا وابقى آثارها هو « حرية الآداب » او هو حركة التجديد في الشعر والكتابة والفن لانها الحركة التي لا تتقيد بمحاكاة قديم ولا بمحاكاة حديث ،

ولانها ترجمان تلك الحرية التي نحن احرار في طلبها بقدر ما يكون الانسان حرًّا في هذا الوجود، وليست بترجمان حرية نحن مدفوعون اليها بدوافع الاضطرار الكثيف والمطالب التي يشبهنا فيها الحيوان وقد يوجد لها مثيل في الجماد

على ان هذه الظاهرة — بعد — ضعيفة الاثر قليلة المحصول ، فاذا هي بلغت اشدها واوفت على تمامها فهنالك تبحث في الشرق عن جميع ظواهر النهضات التي عرفتها الامم فلا يعوزك منها دليل ، بل هنالك لا يعوزك حتى الدلائل على النهضة « المعيشية » التي تعوزنا الآن لاننا نمشي مع البواعث الوقتية مستخرين خطوة بعد خطوة ولا نبعث الى الحرية بشوق في النفس وحب للجمال . فالحقيقة اننا اليوم لا نضارع غيرنا في الاختراع والابتكار ومجاراة حاجات المعيشة لاسباب خلاصتها انهم يفهمون الجمال ونحن لا نفهم الجمال ، لا انهم خلقوا بمعدات واعضاء ونحن خلقنا بغير معدات واعضاء

عباس محمود العقاد

—o:o—

٢ — رأي الاستاذ حنا خبّاز

(١) الظاهرات والحقائق

امام الباحث في دائرة الوجود امران ، هما الظاهرات والحقائق . فالظاهرات هي اعراض الحقائق واعلاناتها ومقاييسها . مثال ذلك اللهيب والدخان والحرارة ، هذه الاشياء هي ظاهرات الاحتراق ، اما حقيقته فهي اتحاد اكسجين الهواء بكربون المادة المحترقة . وكذلك شروق الشمس كل صباح ، وغروبها كل مساء ، وسيرها نهاراً من الشرق الى الغرب ، ظواهر ، والحقيقة التي وراء تلك الظواهر وقد سببتها ، هي دوران الارض على محورها ، من الغرب الى الشرق ، مرة في كل ٢٤ ساعة . ولسنا نعرف الحقائق الا بظاهراتها ، ولا الجواهر الا باعراضها : فالحقائق كائنة بذاتها ، اما الظاهرات فلا تقوم بذاتها ، بل تقوم بالحقائق والجواهر ، التي نجهل ماهيتها . فتنحصر معرفتنا في الظاهرات والتغيرات . وبذلك ندرك الكهربائية مثلاً والمغنطيسية ، والحياة ، والمادة اجمالاً ، وبالظاهرات والاعراض نميّز بين النائم والمستيقظ ، وبين الحي والميت . وبها نعرف النائمة من الامم ، لان للنهضة كما للحياة اعراض وظاهرات

(٢) النهضة الشرقية

في وادي النيل ، ووادي الفرات ، وفي محيطي هذين القطرين ، امم كان لها في صفحات التاريخ صفحة لامعة ، على انها بعد ذلك هجعت ، فغفت رسوم مجدها ، وخبت انوار يقظتها . وصارت تغط في نومها غطيطاً ازعج الناس والالهة . ولا يزال كثيرون ، في هذا الشرق المحبوب يغطون ويزعجون ، وهم يحسبون انهم يحسنون ، ولا تؤاخذهم لانهم هاجعون . ثم جاء دور اليقظة والنهوض ، ففتحت الامم العربية عينيها ، بعد نومها الطويل . ورفعت رأسها في مراقدها ، ونهضت مع ناهضات الامم . وقامت لطلاب المعالي بما اوتيت من همة وذكاء . فشادت المدارس والمكاتب ، وانشأت الصحف والمجلات ، وعقدت الشركات والجمعيات ، وشكلت المجالس واللجان ، وسنت الدساتير والنظامات . وامّ ربوع الغرب الوف من ابنائها وبناتها في طلب العلوم والفنون ، فلم تبق ثمّت ريبة في نهضتها ، بدلايل ظاهراتها العديدة وعليّ ان اثبت هنا اظهر تلك الظاهرات

(٣) المراد باظهر الظاهرات

لست اقوم بكلمة « اظهر » الظاهرات اكثرها ظهوراً ، واعمها شيوعاً ، كالملابس الفرنجية ، والابنية الاوربية ، والرغبة في المراقص والملاهي والسيارات والازياء . لا . لا ليست هذه اظهر ظاهرات نهضتنا . انما هي ظاهرات ثانوية . والمراد على ما ارى ، باظهر الظاهرات « ادلها » على حقيقة تلك النهضة . ولتبيان الفرق بين الظاهرات الاكثر ظهوراً ، وبين الظاهرات الاكثر اظهاراً نقول : ان درس زيد الطب مثلاً ، واحرازهُ الشهادة — الدبلوما — وانشاءهُ مستوصفاً ، ومعالجتهُ المرضى ، وربحهُ الوفير ، هي ولا شك ظاهرات نهضة . ولكنّ تنازل عمرو ، الطبيب الاخر ، عن دخلهِ الوافر ، وتضحيتهُ براحتهِ الشخصية ، وتطوعهُ في خدمة الانسانية ، لغير مكافأة ، واحياءهُ الليالي الطوال ساهراً على المرضى ، من فقراء وغرباء وايتام — هذه الاعمال — هي ظاهرات ادلّ على النهضة دون ادنى ريب . واليك مثلاً آخر . ان نظم بكر الشاعر القصائدَ والموشحات ، وانتشار منظوماتهِ في الاقطار العربية ، واكبار الادباء امرهُ وابرها ، واجماعهم على اكرامهِ ، بالهدايا والحفلات والتقاريظ ، نظماً ونثراً ، هذه الامور ، هي ، ولا شك ، ظاهرات نهضة لا يجوز انكارها . ولكن اقدام اخيهِ عبدالله ، الباحث النزيه ، على تأليف كتاب يغاير بهِ تقاليد قومهِ ، و يثبت فيهِ من الحقائق ما يصدم راسخات العقائد والعوائد والآراء في قومهِ ، قصد خير الامة وابناء الامة ، متحملاً سخطها عليهِ ، ومناوأتها اياهُ ،

ومصادرتها كتابهُ ، والحط من كرامته ، وسوقه الى المحاكم ، وتهديده بقطع موارد عيشه ، اقول ان اقدام المؤلف على ذلك ، هو ظاهرة «ادلُّ» على وجود النهضة في نفسه من تصرُّف اخيه الشاعر . فاري ان تأليف قاسم بك امين ، وامثال قاسم بك امين ، في مصر وسورية والعراق ، هي ادلُّ على النهضة من خمسمائة قصيدة ، لخمسمائة شاعر ، في خمسمائة حفلة ، مع ان هذه ظاهرات مفيدة . لان اقدام المؤلف على تحمُّل سخط الامة التي يخدمها لا يقوم به الاَّ مستيقظ النفس ، صافي الذهن ، مفتوح العينين ، ثاقب الرأي ، نزيه العاطفة ، طاهر الوجدان ، حجة امته وعصره ومحيطه ، على الامم والاعصار والامصار

(٤) فلسفة النهضة

وليست النهضة عمل الفرد الواحد من الامم ، مهما يكن من امر ذلك الفرد الواحد . انما هي حياة كامنة في نفس الامة ، برزت الى حيز الظهور ، لما تمثَّلت لها العوامل والملائمات . فهي كمثلة بثوران البركان ، الذي اتحدت العناصر في جوفه فالتظت نيرانها ، وتولدت ابخرتها ، وصدمت جدرانَ مجوَّف الارض شديد الصدام فزلزلت الارض حولها زلزالها ، وانبثقت فشرتها حيث رقَّت ، فاخرجت اثقالها ، قاذفة بها الى الجو لهيباً ودخاناً ، ثم صبَّت مصهوراتها على سفوح البركان ، على ما هو معلوم جيولوجياً . فليست فوهة البركان علة ثورانه ، مهما تكن تلك الفوهة عالية او كبيرة ، انما هي مظهر ذلك الثوران او مفعوله ، وحقيقتهُ وراء تلك الظاهرة . هذا هو موقف الرجال في نهضات الامم . فجورج واشنطن في اميركا ومصطفى كمال في تركيا ، وغيرهما في غيرهما ، ليسوا خالقي النهضة ، بل آلاتها ومظاهرها . فهم كفوهة البركان مفعول به او فيه ليس الاَّ . اعني ان الاميركيين والاتراك ، وكل امة تحت نحوهما ، لما نضجت في نفوسهم عوامل النهضة ، اوجدت زعماءها . واقول مع الاحترام ، ان مقتطفنا العزيز ، وامثاله من المجلات التي تستحق الذكر في هذا الموقف ، قد خدمت النهضة خدمة تذكر ، وكانت فوهات صدرت منها عوامل النهضة ، ولكنها لم توجد النهضة ، بل النهضة اوجدتها

(٥) اظهر ظاهرات نهضتنا

ليس من غرضي ان اسرد ظاهرات نهضتنا الكثيرة . وليس المطلوب كل الظاهرات بل « اظهرها » فقط . ولا يحسن ان آتي على ذكر اضعفها واهمل اهمها . لذلك

حرصت على اثبات ثلاث من تلك الظاهرات وهي ١ً : اتساع دائرة النظر ٢ً : نسخ التقاليد ٣ً : الاعتماد على الذات

سعة الاطلاع وبعد النظر

كما ارتفع الناظر بعدت افاقهُ فاتسعت دائرة نظره . والمسألة هندسية لا تحتاج الى ايضاح . وليس من ينكر اتساع دائرة النظر ، في رجالنا ، في كل فن وهو اظهر ظاهرات النهضة . وكان يمكنني ايراد كثير من الامثلة في هذا الموقف ، على انني لا ارى الكاتب في احتياج اليها وهو يرى ادلتها محسوسة حولهُ في كل دوائر الاعمال كانشاء الشركات والبنوك والاقدام على معالجة الاعمال الحرّة من مالية وصناعية وزراعية وتهذيبية وفنية . وبعد النظر من اشهر صفات الانجليز ، وافعلها في نجاحهم وثبوت ملكهم ، وهو من اوضاع كل امة ناهضة . وبعيدو النظر وان يكونوا اقلية في كل امة ، فعليهم يتوقف رسوخها في ميدان العمران ، وعلو كعبها في دوائر الاقتصاد والسياسة والفن وكل ملابسات الارتقاء . فان بعد النظر مقدمة لا بدَّ منها في كل مشروع حيوي انساني مفيد

نسخ التقاليد

ليس الهدم غرض النهضة ، بل البناء . ولكن نقض القديم عمل سلبي يستلزمهُ التجديد ؛ فالهدم والبناء هما كل ما في الطبيعة من الظاهرات ، سواء في ذلك الاجسام العضوية ، والاجرام الفلكية ، والهيئة الاجتماعية . بل وملابسات الهيئة من عادات ونظم وشرائع . وسنَّة الله هي — كل ما عتق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال — ولن تجد لسنَّة الله تبديلا . هذه هي سلسلة النشوء غير المعدودة الحلقات

***

ايها ، المتشبث بالقديم ! . رويدك ، لا تغضبنَّ . لقد شخت وبلغت الهرم فانت بارح . وسيخلفك ابنك كما خلفت انت اباك

نزل الدنيا اناس قبلنا رحلوا عنها واخلوها لنا
ونزلناها كما قد نزلوا وسنخليها لقوم بعدنا

فاعلم ان الامم كالافراد ، وكالاشجار ، يدركها الهرم بعد نضارة الصبا ثمَّ تزول — ويخلفها غيرها . هكذا جرى لامم فينيقية وقرطاجنة وبابل ونينوى والبتراء وغيرها . فاسمع لي ان اقول لك : ان الشرائع والنظامات والفلسفات ، وكل ملابسات الاجتماع — لا يستثنى منها شيء — هي ايضاً جارية على هذا السنن . تشيخ وتهرم وتنسخ

ويحل غيرها محلها . وكما يغير الاحياء ثيابهم ، تتناول الهيئة شرائعها ، بالتعديل والتجديد والابدال والالغاء — ولاجل ذلك وجدت المجالس التشريعية . فكل ما عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . أو يفوتك انهُ جلَّ جلالهُ ، وهو رب الطبيعة والنشوء ، يمسخ آية فيأتي « باحسن منها » . اولا يؤيد اختيارك الشخصيُّ ذلك . فان ثوبك طفلاً لا يترك رجلاً ، فابدلتهُ باوسع منهُ ، ومسريرك ولداً لا يسعك راشداً فابدلتهُ باكبر منهُ . وسائر اشيائك متغيرة بتطورك . وليست الحياة ، وكل الوجود ، الاَّ سلسلة تطوُّر وتغيُّر ، فما ساغ اليوم فقد ينكر غدا ، وما نفع في الامس فقد يضر اليوم . هذا هو النشوء . اما الجمود فهو البقاء على سنن واحد . وهو ضد الطبع . هو جمود . هو موت . هو عار على الامم . هو مزالق دمارها . فمن اظهر ظاهرات نهضتنا العربية « نسخ التقاليد » . هذا هو الجهاد الادبي في الامم

ويجب عليَّ التخصيص بعد التعميم ، والايضاح بعد الابهام فاخص بالذكر من ذلك

منزلة المرأة

منزلة المرأة في الامم الناهضة غير منزلتها في الامم الهاجعة . ففي هذه الامم تعدُّ المرأة من سقط المتاع ، مقيدة مستعبدة منحطة . فلما نهضنا هبَّت مرأتنا ومرآتنا ، لاخذ مقامها الطبيعي في هيئتنا . فدخلت الجامعات ، وسابقت الشبان في مضمار الطلب ، فاحرزت العلوم ، ودبَّجت يراعتها المفيدة من المقالات ، وحضرت الحفلات ، وبزَّت الرجال ، تالية على رؤوس العلماء آي بيانها ، وطرقت المجالس تبغي الى دست الاحكام سبيلاً ، اسوة باخواتها في ربوع اوربا واميركا . ان هذه ادل على نهضتنا من ركوب السيارات ، والتحليق بالطيارات . والادل منها ، مناصرة كثيرين من ابناء الضاد شعراً ونثراً ، حركة المرأة ، والاخذ بيدها اللطيفة ، في وسط التيار العظيم . واري ان الانفاق على تهذيب البنات اقدس ما عمل الوالدون . ونصرتهنَّ ابلغ ما نظم الناظمون ، وتحريرهنَّ اعدل ما شرع الشارعون . واية منفعة يرى المرء في اغماض احدى عينيه ، وغلِّ احدى يديه ، هذا هو الغل الذي يقيد المرأة ويستعبدها ويحجزها ، فيحسر تسعة اعشار قوته ، وتسعة وتسعين في المائة من سعادته وهنائه

الاعتماد على النفس

الجنين في رحم امه كلي الاعتماد عليها لاجل حياته . وهكذا يعد ولادته الى حدٍّ ما . ومتى بلغ الرشاد قام لاحراز حاجاته ، وادراك غاياته . هذا هو حال الامم ، تعتمد على

غيرها حاجة ، فاذا استيقظت قامت للانتاج . فتتوج الامم مقياس نهضتها . والوضع الطبيعي ان تنتج الامة ما تستهلكهُ . وتجوز مبادلتها غيرها ، ما زاد عن استهلاكها بما نقص في منتوجها. كمبادلة مصر اوربا الاقطان والبعل بالمنسوجات والاثاث. ولا غضاضة في ذلك . فاذا زاد استهلاك الامة عن منتوجها ، فهي متقهقرة وصائرة الى الفناء . كل ذلك مألوف ، وهو راجع الى الزراعة والصناعة والتجارة . واكتفي هنا بالاشارة اليهِ . هذه هي اظهر ظاهرات نهضتنا ، وهي سعة الاطلاع ، نسخ التقاليد ، زيادة المنتوج . وواضح اننا في الثلاث اطفال . ولكننا غير ما كنا قبلاً

واذا رأيت من الهلال نموهُ ايقنت ان سيصير بدراً كاملا

(٦) ابق آثارها

ليس لك الحواجز والسدود ، وتخريب الارياف والمدائن، كل ما يترك فيضان نهر المسيبي من الآثار ، في ولايات اركنسس ولويزيانا ومسسبي وتكسس وغيرها. انَّ لذلك الفيضان آثاراً ابقى ، يعرفها الفلاحون والمزارعون . وابق آثار نهضتنا العربية ليست الهدم والتدمير — معاذ الله — « فالحياة الروحية » هي غرض التطورات الاجتماعية . وللامم كما للافراد شخصيات . وتعظيم الشخصيات هو غرض التهذيب والارتقاء في عرف الفلاسفة . وذلك التعظيم متناسب مع ما تبلغهُ من الحق . فكل ناموس كشفهُ المكتشفون هو زيادة في قوة البشرية ، او هو تعظيم لشخصيتها . فالشخصية الخالية من الحق هي صغيرة. والمملوءة بالحق هي عظيمة . وسيادة الحق هي سيادة الله . وسيادة الله هي كل العظمة . فشخصياتنا تعظم أو تدنو بما ترجحهُ من الحق او تخسرهُ . ومستوى الامم في ميدان العظمة يقاس بما في حياتها من الحقائق، علمية او فنية او روحية . فالذوق الفني، والنواميس الرياضية والطبيعية ، ونضوج التشريع ، هي العوامل التي سوَّدت امم الانجلوسكسون واللاتين . ونحن نقتفي آثارهم في نهضتنا . ولكننا مسبوقون . فابق آثار نهضتنا « التقدُّمي» في مضمار الارتقاء وراء الامم الناهضة

مصر حنا خباز